الفصل الثالث

التجديدُ والمجدّدونْ

التجديد إحياء لما دُرِسَ من آثار الدين ، وإنعاش لما طمس من معالم الشرع ، وليس التجديد زيادة ولا نقصانًا في أصول الدين وفروعه ، وليس تبديلاً ولا تغييرًا عن معالمه وشعائره ، ولكنه إصلاح للأوضاع الفاسدة والأحوال السيئة والرجوع بالمسلمين إلى قواعد الدين السليمة .

وإذا رجعنا إلى تاريخ الدعوات الدينية ، وجدنا أنها كانت تعلو في أول قيامها إلى الأوج والذروة ، ثم تهبط تدريجًا إلى الحضيض والهوة ، تضعف بضعف تأثير الوحي وبعد الناس عن مصدر إشعاع الدعوة .

لهذا كان الأنبياء السابقون يتبع بعضهم أثر بعض ، كلما مات نبي خلفه نبي آخر ، كما جاء في الحديث : « كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء »[1] ... إلخ .

ولما ختمت النبوة وأغلقت أبواب السماء على الوحي اقتضت حكمته تعالى أن لا يترك عباده هملا بعد أن أوضح النبي لهم الدين بكتاب الله تعالى وسنته الشريفة ، جعل الله العلماء ورثة الأنبياء وخلفاءهم وحملة دعوتهم ، لا يغيبون عن أمة ، ولا تخلو منهم مدينة ، ولا يضل عنهم مكان .

واختار من بين هؤلاء العلماء من تعلو همته وتصفو روحانيته ، وتستعد نفسه لتحمل الدعوة طاهرة نقية ، كما جاءت أول يومها ، ليبلغها الناس ، وهذا التجديد من خصوصيات الأمة المحمدية .

روى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ قوله : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك » .

---

(١) متفق عليه ، ورواه الإمام أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة وللحديث بقية .

وروى أبو داود أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يبعث لهذه الأمة من يجدد لها دينها على رأس كل مائة سنة » .

والمجدد : صفة يطلقها العلماء على من قام بإصلاح شأن من شئون الأمة .

والمجدد من يعرف غاية الدعوة ، ويضحي من أجلها بنفسه ونفيسه ، لا يغتر بمنصب ولا جاه ، ولا ينخدع ببريق الذهب والفضة ، لا يخاف لومة لائم ، ولا يلتفت لقدح قادح ، بل تكون همته الأسمى تطهير الدين مما علق به من الخرافات والبدع ، ويسعى في نشره طاهرًا نقيًّا صافيًا كما أنزل .

وربما تعدد المجددون في قرن واحد ، وفي إقليم واحد ، وإن الذين يستحقون هذه الصفة قد يختلفون في مسالكهم وميولهم وأعمالهم ، فهناك المجددون في العقيدة ، والمجددون في الأصول ، وفي الحديث ، وفي الفقه ، وفي السياسة ، وفي غير ذلك .

لهذا قال الحافظ السيوطي : يحتمل أن يكون المجددون على رأس كل مائة سنة جماعة من العلماء والأمة ، يحصل بمجموعهم التجديد للدين[1] ، ولذلك أيضًا يختلف العلماء في تعيين مجدد القرن الواحد ، ولكنهم يكادون يتفقون على أنه يجوز أن يكون هناك صغار المجددين ، الذين يستفيدون ويقتبسون من كبيرهم ، فيجددون بدورهم في جهاتهم المختلفة ، فيتعدد المجددون في القرن الواحد والإقليم الواحد .

واختلف العلماء في تحديد المائة عام على اختلاف معنى القرن في الحديث السابق ، قال بعضهم : القرن هو السن والعمر ، على نحو قوله عليه الصلاة والسلام : « خير القرون قرني » أي على عمري وسني .

وقال بعضهم : إن القرن هو الجيل من الناس ، عاشوا في زمن واحد ، وهم ما بين السبعين إلى المائة عام ، وعلى هذا ينتهي قرن النبي ﷺ بموت آخر صحابي من الذين عرفوا النبي ﷺ ، وذلك في آخر المائة الأولى .

---

(١) الدعوة التامة : للحضرمي ص ١٣ .

وأجمع العلماء على أن مجدد المائة الأولى : هو عمر بن عبد العزيز (الخليفة الأموي) الذي ألحقه الإمام الشافعي بالخلفاء الراشدين ، لأنه هو الذي أمر بتدوين الحديث ، حيث كتب إلى أبي بكر بن حزم بقوله : «انظر ما كان من حديث الرسول واكتبه ، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء».

ويذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى أن مجدد المائة الثانية ، هو محمد ابن إدريس الشافعي ، الإمام المجتهد في الأصول والفروع ، وهو : الواضع الأول لأصول الفقه .

ويذهب العلماء إلى : أن أبا الحسن الأشعري هو مجدد المائة الثالثة ، لأنه تصدى لتطهير العقيدة من زيغ الاعتزال والأهواء ، وذهبوا إلى أن أبا حامد الإسفرائيني هو مجدد المائة الرابعة ، وأن أبا حامد الغزالي وابن حزم الظاهري هما مجددا المائة الخامسة .

وأن ابن دقيق العيد هو مجدد المائة السادسة .

ولم يتم الاتفاق على مجددي القرون الباقية .

غير أن الأرجح أن يكون ابن تيمية ، ثم محمد بن عبد الوهاب ، ثم ولي الله الدهلوي ، ومحمد عبده ، وعثمان بن فودي ، وحسن البنا ، من المجددين رضي الله عنهم أجمعين وأرضاهم .

ولقد أفرد الشيخ عبد المتعال الصعيدي كتابًا ضخمًا في هذا الموضوع لم يغادر صغيرًا ولا كبيرًا إلا أحصاه[1] .

● ما يُستفاد من هذا الموضوع

على كل داع إلى الله أن يحاول تغيير الأوضاع الفاسدة في محيطه ، حتى يستحق صفة المجدد التي تطلق على من أصلح ناحية من النواحي الدينية والدنيوية ، وهي الغاية الوحيدة التي لا يزال مضمارها مفتوحًا أمام الدعاة ، يتسابقون فيه للحصول على القدح المعلى .

---

(١) « المجددون في الإسلام» طبع مكتبة الآداب بالقاهرة .

● الدعوة والمهدوية

يتكاسل كثير من الناس في أمر الدعوة اتكالاً على ظهور المهدي ، إذا بلغ الفساد منتهاه ، فيملأ الأرض عدلا بعد ما ملئت جوراً ، على نحو ما ورد في الأحاديث النبوية التي بلغت خمسين حديثًا ، بمختلف الطرق ، وكلها تخبر بظهور رجل في آخر الزمان يكون من أهل بيت النبي يلقب بالمهدي ، ويدعى بمحمد بن عبد الله ، يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، يبلغ سلطانه المشرق والمغرب ، وتظهر له الكنوز ، لا يبقى في الأرض خراب إلا عمره ، يسقيه الله الغيث ، وتخرج الأرض نباتها ، وتكثر الماشية ، وتعظم الأمة ، يقسم المال ولا يعده ، يجيء إليه الرجل فيقول : يا مهدي أعطني ، فيحثو له في ثوبه ما استطاع أن يحمله ، تنعم الأمة في عهده نعمة لم تنعم بمثلها ، يظهر قبله الدجال ، وينزل في زمنه عيسى ابن مريم ، ويعاونه على قتل الدجال ... إلخ .

هذه خلاصة ما ورد في شأن المهدي ملفقا من جملة الأحاديث الواردة فيه[1] .

وقد أنكر جماعة من العلماء صحة تلك الأحاديث ، وعدوها من وضع الشيعة ، وقد أورد جميعها ابن خلدون ، ثم ناقشها وجرح رواتها ، وضعف أسانيدها ، واعتقد صحتها آخرون وعدوها من أشراط الساعة .

لذلك سارع الخلفاء العباسيون إلى تسمية أبنائهم بالمهدي ، تمهيدًا لانتحال هذا اللقب فيما بعد .

وادعى أكثر من عشرة في مختلف الأمصار والأعصار ، أنه هو المهدي المنتظر ، مع أن الموعود به واحد لا متعدد .

وزعم الشيعة أن المهدي المنتظر هو : محمد بن علي بن أبي طالب الملقب بابن الحنفية ، ولما مات قالوا : إنه اختفى ، وسيعود في آخر الزمان .

---

(١) نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار ص ١٧٠ .

والمنصور ـ ثاني الخلفاء العباسيين ـ لقب ابنه بالمهدي ، وجعله ولي عهده ، ليجمع بين الخلافة السياسية الدنيوية والإمامة الروحية الدينية .

ومحمد بن عبد الله بن تومرت ، من نسل علي بن أبي طالب ادعى المهدوية فاستطاع بها أن يؤسس دولة تعرف بالموحدين ، في الأندلس ، وامتدت إلى المغرب ومصر .

وعبيد الله من نسل علي أيضًا ، ادعى المهدوية وتبعه خلق كثير في المغرب ، وأسس الدولة الفاطمية ، ومن أبنائه المعز لدين الله فاتح مصر ، وباني القاهرة ، ومؤسس الأزهر .

وادعى محمد أحمد بن عبد الله في السودان العربي ، أنه المهدي المنتظر ، قاوم البدع وحارب الاستعمار التركي والإنجليزي ، قتل الجنرال غوردون الإنجليزي ، وشتت جيشه وأسس دولة عاشت مدة في السودان العربي .

ومنهم السيد محمد المهدي «الجون بوري» الهندي (٨٤٧-٩١١هـ) .

قاوم تيار الإلحاد والزندقة في بلاد الهند ، وقارع فتن البدع والأهواء .

ولما ادعى أنه المهدي التبس أمره على العلماء ، فانقسموا في شأنه بين قادح ومادح ، وآخر التزم الحياد وفوض أمره إلى الله ـ توفي عند عودته من الحج .

ومنهم محمد بن عبد الله حسن الصومالي ، ادعى المهدوية بعد رجوعه من الحج سنة ١٨٩٥ ، واكتسب نفوذًا كبيرًا في الصومال ، وقام بينه وبين الحكومة الإيطالية عراك شديد إلى أن قضت عليه الحكومة عند قيام الحرب العالمية الأولى فمات سنة ١٩٢٠ .

وللأستاذ أحمد أمين كتيب صغير في الموضوع سماه «المهدي والمهدوية» فليراجعه من شاء التوسع ، وهو من سلسلة «اقرأ» منشورات دار المعارف المصرية .

وهنا خلق كثير يحملون هذه الدعوى فيستجيب لهم الناس ، فتنتفع بهم الدعوة قليلاً أو كثيرًا ، فإن دعاتها قاموا بدور كبير للإصلاح والتجديد في

محيطهم ، كمؤسس القاهرة والأزهر الذي ملأ الدنيا علمًا وهداية ، وكمهدي السودان الذي غلب على الجيش الإنجليزي .

على أن دعوى المهدوية قد أضرت بالدعوة الإسلامية من ناحيتين :

الأولى : اتكال المتكاسلين على المهدي في إصلاح الأوضاع الفاسدة .

والثانية : توسل بعض مدعيها إلى ادعاء النبوة كالقاديانية المنتشرة في المستعمرات الإنجليزية السابقة ، والبهائية التي تمركزت في أمريكا ، وانطلقت منها إلى أنحاء العالم ، أو ادعاء الربوبية كالحاكم بأمر الله ، مؤسس الدرزية المنتشرة في سوريا ولبنان حتى الآن .

ومن الذين توسلوا بها إلى الإفساد والفساد محمد علي الباب الذي قام في بلاد الفرس سنة ١٨١٩ ، وادعى أنه المهدي ، ثم ادعى النبوة ، ثم لقب نفسه الباب إلى الله الخالق وعرف أتباعه بالبابية ، ثم تلميذه يحيى ، وتلقب بالبهاء وإليه تنسب البهائية المنتشرة في أمريكا .

● الدعاة المثاليون ودراسة حياتهم

إن دراسة حياة الأبطال تغرس الشجاعة في القلوب ، وتغري بالتشبه بالشجعان ، وقراءة سير الملوك والزعماء والعظماء توحي إلى النفوس حب القيادة والزعامة .

ولقد رأينا كثيرًا من الأبطال الذين قادوا شعوبهم بعد أن كانوا في بداية أمرهم يستمعون إلى أخبار الأبطال الذين خلوا من أهالي بلادهم وغير بلادهم .

وما من زعيم أو قائد أو بطل إلا أنه قد تأثر بأخبار من قبله ، لذلك يجب على من يريد أن يتدرب على الدعوة إلى الله أن يدرس حياة الرعيل الأول من الصحابة والتابعين ، إلى جانب دراسته لحياة الأنبياء والمرسلين والأئمة المصلحين .

وهو إذا زعم أنه لا يستطيع أن يقوم على قدم المساواة مع الأنبياء ، لأنهم معصومون ومطبوعون على حمل الرسالة .

فإن الصحابة والتابعين والعلماء المثاليين ليسوا معصومين كالأنبياء ، ولكنهم استطاعوا أن يتشبهوا بالأنبياء ويتخلقوا بأخلاقهم ، فلا عذر لأحد بعد ذلك أن يتقاعد ويتكاسل عن الدعوة ما دام أن قام أولئك الرجال بما قاموا به .

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرجال فلاح

ولقد ظهر في ميدان الدعوة رجال في كل زمان ومكان ، ضربوا للناس أروع الأمثال في الصمود أمام الباطل للدفاع عن الحق ـ ينبغي للطالب أن يدرس حياتهم وأساليبهم ، فإن ذلك يخلق فيه الهمة ، ويغرس في نفسه الشجاعة ، ويقوى عزيمته في سبيل الدعوة ـ كالإمام الحجة عز الدين بن عبد السلام ، وابن تيمية ، وولي الله الدهلوي ، ومحمد بن عبد الوهاب ، وجمال الدين الأفغاني ، وعثمان بن فودي ، وحسن البنا ، عليهم رحمة الله جميعًا .

فلتكن على الأسلوب السابق لدراسة مناهج الأنبياء في معرفة ما قام به هؤلاء الدعاة من الإصلاحات وما أتوا من أجله من المهمات ، ومن أحسن الكتب في ذلك كتاب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» للسيد أبي الحسن الندوي ، وكتاب «زعماء الإصلاح» للدكتور أحمد أمين .

● أصناف الدعاة في الصدر الأول

إن الدعاة في الصدر الأول ليسوا من طراز واحد ، ولم يكونوا يعملون على شاكلة واحدة ، بل كانوا موزعين في مختلف طبقات العلماء .

فالفقهاء المجتهدون دعاة ، لأنهم قربوا للناس ما بعد عنهم من المسائل الدقيقة ، وسهلوا لهم ما صعب عليهم من معاني كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وبفضلهم سلمت العبادات الإسلامية من الفوضى والبلبلة الفكرية التي وقعت فيها الديانات السابقة ، ذلك لأن الفقه في الدين ركن ركين من أركان الدعوة ، وهو أحد المصادر التي يستمد منها الداعية فتاويه ، وقد حث القرآن على التفقه

في الدين بقوله : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة:١٢٢).

وفي الحديث : « من أراد الله به خيراً يفقهه في الدين » .

ولقد ترك الأئمة المجتهدون أصحاب المذاهب الفقهية في أنفسهم قدوة حسنة من الدفاع عن الحق ، يقتدى بهم الدعاة فيها إلى الأبد ، ومواقف الإمام مالك ، وأبو حنيفة ، وسفيان الثوري مع خلفاء بني أمية وبني العباس مشهورة ومدونة في صفحات التاريخ[١] .

والمحدثون دعاة ، لأنهم هم الذين حفظوا على الأمة الإسلامية أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله وتقريراته ، وهي المسماة بالسنة النبوية ، والسنة النبوية هي : المصدر الثاني للتشريع الإسلامي .

وقد قرر القرآن ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (النحل:٤٤) .

وقوله : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾(الحشر:٧).

ثم قال رسول الله ﷺ : « نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها وأداها كما سمعها ، ورب مبلغ أوعى من سامع »[٢] .

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ : قال : « اللهم ارحم خلفائي » قلنا : يا رسول الله .. ومن خلفاؤك ؟ قال : « الذين يروون أحاديثي ويعلمونها الناس » .

قال سفيان الثوري : « لا أعلم علمًا أفضل من علم الحديث لمن أراد به وجه الله ، لأن الناس يحتاجون إليه حتى في طعامهم وشرابهم ، فهو أخص من التطوع بالصلاة والصوم ، لأنه فرض كفاية » .

---

(١) ومن أحسن ما دونه الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » موقف أبي حازم مع سليمان ابن عبد الملك ، اقرأه بطوله لترى قوة الحق أمام مظاهر الباطل . .

(٢) وللحديث روايات أخرى ذكرها الترمذي وأحمد وابن حبان والحاكم فارجع إليها .

وقال ابن القطان : «ليس في الدنيا مبتدع إلا وهو يبغض أهل الحديث ، لأنهم يهدمون بنيان بدعته من أساسها بالأحاديث ».

والمحدثون الذين كانوا قدوة صالحة للدعاة كثيرون، منهم: أحمد بن حنبل، والبخاري ، ومسلم ، وغيرهم .

القراء دعاة ، لأنهم أهل القرآن الذين نقلوا إلينا أوجه قراءته كما أنزله تعالى على رسوله ، وكما رواه عنه الصحابة والتابعون ومن بعدهم ، ولهم الفضل الكبير على حفظ نص الرسالة وأساس الدعوة .

فلكل من الفقيه والمحدث والقارئ دور عظيم من مجال الدعوة إلى الله بطريق مباشر وغير مباشر .

ومن كان واجدًا منهم فلينفق مما آتاه الله في الدعوة إلى الله .

ومن كان فقيهًا أو محدثًا أو مدرسًا أو قاضيًا أو واعظًا أو مجاهدًا أو أميرًا أو قائدًا ، فله فيمن مضى المثل الأعلى الذي يحتذيه في تبليغ رسالة الله .

والدعاة منهم المتفرغون وغير المتفرغين . .

أما المتفرغون ، فهم خطباء المنابر ، وعلماء المعاهد ، وكُتَّاب الصحف والمجلات الذين وقفوا حياتهم لهذا العمل ، ويرتزقون إما من الأوقاف أو من التبرعات التي تُخَصص لنشر الدعوة .

أما غير المتفرغين فهم الذين يعيشون على أعمال أخرى ، ولكنهم يتطوعون للدعوة ولا يرتزقون منها .

- **أصناف الدعاة بعد الصدر الأول**

يجب تقسيم الدعاة في العصور الأخيرة إلى ما يأتي :

دعاة مطبوعون ، دعاة متطوعون ، دعاة مصنوعون ، دعاة مصطنعون .

أما الدعاة المطبوعون : فهم الذين صنعهم الله بعينه ، وهيأهم من عنده ، وكانوا يظهرون على مسرح الدعوة في أوقات مختلفة ، على شكل المجددين ، وتظهر على أيديهم عجائب مدهشة في إدخال الناس إلى دين الله أفواجًا ،

أو في إصلاح الأوضاع الفاسدة في المجتمع الإسلامي ، أو في إقامة دولة إسلامية تحكم بالشريعة الإسلامية في بيئتهم ، وقد قدمنا أمثلة كثيرة لهؤلاء .

أما الدعاة المصنوعون : فهم الذين تقوم المعاهد والجامعات بإعدادهم وتوجيههم بالتعليم والتمرين ، أمثال : خريجي جامعة الأزهر في مصر ، والزيتونة في تونس ، والقرويين في فاس ، ودار العلوم في الهند ، والجامعة الإسلامية في المدينة المنورة وفي الخرطوم .

أما الدعاة المتطوعون : فهم الذين لا يتفرغون للدعوة ، وإنما يحملهم إخلاصهم لدينهم أن ينتهزوا الفرص ، وأن يستغلوا مكانتهم في صناعتهم أو وظيفتهم ، فينشروا الدعوة بقدر إمكانهم .

وهؤلاء من أمثال الملوك والأمراء والأغنياء والوزراء والسفراء .

ولقد عرف التاريخ الإسلامي عددًا من هؤلاء كثيرًا ممن انتشرت على أيديهم دعوة الإسلام .

أما الدعاة المصطنعون : فهم أدعياء الدعوة ، الذين لا يعرفون أهداف الرسالة ولا غاياتها ولا أساليبها ، ولا وسائلها .

بل كان في قلوبهم غرض لا صلة له بالدعوة في حد ذاتها ، وإنما هو حاجة في نفس يعقوب قضاها .

وأمثال ذلك ملوك وأمراء ورجال السياسة الذين يتخذون الدعوة وسيلة إلى نيل مطالبهم ، أو الذين كانوا رؤساء الدولة في وقت من الأوقات ولم يهتموا بالدعوة حينذاك حتى إذا زالت الدولة وسقطت من أيديهم ، رجعوا إلى ميدان الدعوة يتظاهرون بالحماسة لها ، وأمثال هؤلاء هم الأدعياء الذين يجب الاحتراز منهم .

● **دعاة وأدعياء**

الدعاة : جمع داع وداعية .

وهو الذي نَصَّب نفسه للدعوة إلى الله وحده والإيمان به تعالى وبنبيه محمد ﷺ وإلى العمل الصالح والإحسان في العبادات والمعاملات والحكومات .

والدعاة ليسوا على نوع واحد ولا على شكل واحد ، بل هم أنواع وأشكال . منهم : المتفرغون والمتطوعون ومنهم العلماء والأمراء والملوك والأثرياء ، ومنهم التجار والصناع والنساك والوعاظ .

وما من دعوة صادقة إلا وبجانبها دعوة كاذبة ، وما من زعيم إلا ويقوم بجانبه زنيم دعى ، والأدعياء : جمع دعى ، وهو زنيم .

وهو من ينتسب إلى قوم وليس منهم ، أو من يتخلق بأخلاق قوم في الظاهر وهو يعتقد خلاف ذلك في الباطن ـ كالمنافق يظهر خلاف ما يبطن .

وأصل الدعى : الزنيم الذي يدعى إلى غير أبيه ، أو يدعيه غير أبيه . وقال ابن كثير في تفسيره : يستعمل الزنيم للمشهور بالشر بين الناس ، ومن ذلك قوله تعالى في وصف الوليد بن المغيرة : ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ (القلم:١٣).

ويغلب إطلاق الزنيم على أولاد الزنا ـ لأن الشيطان يتسلط عليهم غالبًا ما لا يتسلط على غيرهم .

وخلاصة القول : أن كل من ينتسب إلى نسب ليس منه فهو دعى ذلك النسب ، وأن كل من ينتسب إلى حسب ليس فيه فهو دعى ذلك الحسب .

والنسب هو الدم . . والعنصر . . والرحم .

والحسب هو الدين . . والشرف . . والكرم .

وأدعياء الأنساب والأحساب هم الذين يتظاهرون بالولاء لهذه الأنساب والأحساب ويتحمسون لها في الدفاع ، ولكنهم في الحقيقة يعينون العدو في باطنهم على تلك الأنساب والأحساب على غرار ما ذكره النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أبو داود والحاكم وسماه فتنة السراء . . إلى أن قال : « دخنها من تحت قدمي رجل من أهل بيتي يزعم أنه مني وليس مني وإنما أوليائي المتقون » .

إذا لم يكن الدعاة إلى الله من طبقة واحدة بل من مختلف طبقات الناس من العلماء والأمراء والنساك والزهاد والفقراء والأثرياء فإن الأدعياء لا يكونون في طبقة واحدة بل في مختلف الطبقات خلافًا لمن يزعم أن في الطوائف الصوفية وحدها دعاة وأدعياء ، والحقيقة أن في كل طبقة من طبقات خلق الله دخلاء يُعرفون بأدعياء .

فإبليس كان دخيلاً على الملائكة في الرفيق الأعلى فكان دعيا ، وقابيل كان دخيلاً على أبناء آدم فكان زنيمًا .

وامرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عباد الله الصالحين فكانتا دخيلتين ، وكنعان كان دخيلاً على أبناء نوح فكان زنيما ، والسامري كان دخيلاً على قوم موسى فكان زنيما . . كما كان قارون من قوم موسى على طراز هارون فكان زنيمًا ، يعرف ذلك كله من يتابع التاريخ ويستقصى الدخلاء في كل قوم ، وعلى هذا فالدعاة ليسوا نوعًا واحدًا فلا يكون الأدعياء نوعًا واحدًا . . .

● الدعوة والتعليم

التعليم ركن هام من أركان الدعوة وأداة ضرورية من أدوات الإرشاد ، فالدعوة تعليم الكبار ـ والتعليم إرشاد الكبار والصغار .

فالأنبياء والمرسلون كلهم معلمون ، لأنهم وعاظ من جهة ، ومربون من جهة أخرى ، فإذا كان الواعظ يعلم الناس بخطبه في الجوامع والمجتمعات ، ويعلمهم الحلال والحرام ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، فإن وظيفة المعلم أن يمرن ذلك ، لأنه يوجه القلوب إلى الخير ، ويتعهدها ليغرس فيها الصلاح ، حتى إذا صلحت صلح بها عدد من الناس ، لهذا جعل الإسلام العلم رفيق العبادة ، ورفع فضل العلم في كثير من المناسبات على فضل العبادة ، وفي الحديث : « فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد »[1] .

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه عن ابن عباس .

ولقد كان التعليم في الإسلام يبدأ بالقرآن والحديث وأحكام العبادات والمعاملات إلى جانب العلوم الكونية والعمرانية .

وليست الجوامع الإسلامية أمكنة للعبادة فقط ، ولكنها مراكز ومعاهد لعلوم الدنيا والدين على السواء ، وبرلمانًا ومحكمة للحكومة .

وكان مسجد سيدنا محمد رسول الله ﷺ في المدينة مدرسة عامة لسائر المسلمين ، ثم بني النبي ﷺ في مؤخرة مسجده مكانًا يأوى إليه من لا أهل له ولا مال ، ويتعلم القرآن والسنة وسمى المكان بـ« الصفة » ، وهي أول مثال للداخلية الحاضرة .

ثم أمر لسيدنا عمر في خلافته بتأسيس مدرسة إلى جانب كل مسجد ، لتعليم الأطفال القراءة والكتابة والقرآن فسمى المكان « كُتَّابًا » أو « مكتبًا » .

فالتعليم كما سبق هو أكبر مرصد وقف فيه المبشرون لاقتناص أبناء المسلمين ، فعلى المعلمين أن يجعلوا التعليم شاملاً لأمور الدنيا والدين ، فإن اقتصار المسلمين على المباحث الدينية دون المباحث الكونية والعمرانية في العصور الوسطى ، هو الذي أخرهم ، فتقدم غيرهم في ذلك الميدان .

● التعليم مجال لتمرين الدعاة

كل من يعرف الفرق بين التعليم والتدريب يعترف بأن تحفيظ الآيات القرآنية والأحاديث النبوية دون التمرين العملي على الدعوة لا يكفي لإعداد الداعية الصالح ، ولا ينطبق على التكنولوجيا التي وضعها الإسلام ، وطبقها رسول الله ﷺ وأصحابه قبل أن يهتدي إليها الغربيون اليوم .

ولقد جاء في كتب السيرة أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول : « ما بعث الله نبيًّا إلا راعي غنم ، وبعث موسى وهو راعي غنم ، وبعث داود وهو راعي غنم ، وبعثت وأنا أرعى غنم أهلي بأجياد »[1] .

---

(١) وفي رواية « ما بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم ، وأنا كنت أرعاها لأهل مكة بالقراريط » رواه البخاري وابن ماجه .

هذه صورة من صور التكنولوجيا الإسلامية ، فإن التمرين على رعاية الحيوان يربي النفس ويلين الطبع على الرحمة والصبر والأناة ، قبل رعاية الإنسان .

ويقول الدكتور أحمد أمين في إحدى محاضراته في التربية : « التعليم نوع من الرهبنة ، انقطع صاحبه لخدمة العلم كما انقطع الراهب لخدمة الدين ، وإن شئت فقل : إن الراهب يعبد ربه عن طريق تبتله واعتكافه ، والمعلم يعبد ربه عن طريق علمه وتعليمه ، وكلاهما زهد في الدنيا إلا بقدر ، وانقطع عن الناس إلا بما يمس علمه ، وكلاهما حبس لذته وسعادته فيما نصب له نفسه ، فإن رأيت راهبًا ينحرف ببصره إلى زخرف الدنيا وزينتها فهو راهب فسد ، وإن رأيت معلمًا يجعل غرضه الأول المال والجاه وعرض دنيا ، فهو كذلك معلم فسد » .

ما أحسن هذا التمثيل الذي أورده الدكتور أحمد أمين لو أنه وضع الربانية مكان الرهبنة لحديث : « لا رهبانية في الإسلام » .

أما الربانية : فقد وردت في القرآن ثلاث مرات في سياق يدل على أن الربانيين ورثة الأنبياء ، منها قوله تعالى : ﴿ كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (آل عمران:٧٩) .

وقوله : ﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ ﴾ (المائدة:٤٤) .

وقوله : ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ (المائدة:٦٣) .

وروى البخاري عن ابن عباس قال : « كونوا ربانيين ، حلماء فقهاء » .

قال الشارح : الرباني هو : الذي يربي الناس بصغار العلوم قبل كبارها .

* * *